مقالات في فكرة التقدم

بقلم محمد الناصر النفزاوي

(2)

النـبـي محمـد (570-632)

و

القوتان العظميان الفارسية والبيزنطية وملحقاتهما

الفصل الثاني

أزمـة الضمير في الشرق والغرب حتى سنة 313

حكم أردشير الأول ، مؤسس الدولة الساسانية (224– 241) وابنه وخليفته سابور الأول(241- 272) إيران مدة تقارب النصف قرن واعتمدا في حكمهما على مركزية صارمة ودين للدولة هو المزدية يقمع كل حيد عنه.

هذه المركزية السياسية وهذه الطاعة الدينية تعبران عن المرتبية الاجتماعية التي رأى فيها الحكم الساساني الجديد (224-651) أساسا للمجتمع الإيراني والتي تتكون كالتالي:

1. كبار رجال الدين المجوس (1) ومن هنا أطلق المسلمون على المزدية اسم المجوسية.
2. العسكريون من الفرسان لا من المشاة الذين هم من أصل قاعدي.
3. الكتاب.
4. الفلاحون والصناع (2)

لقد كان المجوس يمثلون قاعدة المجتمع الإيراني الروحيين والحفظة اليقظين لدين الإله "هرمزد" (مزده) كما حدده زرادشت النبي الأفغاني الأصل في القرن السابع قبل الميلاد في الكتاب المقدس (أفيستا) الذي يسميه المؤرخون العرب "كتاب الزمزمة" وفي ما أضيف إليه من شروح وتفاسير (زند) وهو الزنده عند العرب.

غير أن وظيفة كبار رجال الدين لم تكن تقتصر على الجانب الديني فحسب بل كانت تتعداه الى تعليم أبناء الطبقات العليا عقائد المزدية ونوع السلوك الذي يجب أن يسلكوا كل ذلك انطلاقا كما ذكرنا من الكتاب المقدس (أفستا) وشروحه اللذين كانا يعتبران المصدر الأوحد لكل علم وسلوك.

لقد كان المجوس يضطلعون بدور أساسي في المجتمع الإيراني لا يكاد يضاهيه إلا دور الفرسان النبلاء الذين كانوا يكونون نواة الجيش الإيراني الصلبة ولا يتلقون ، للقيام بوظيفتهم ، لا راتبا ولا عدة اذ كانت صفة الفارس وحدها علامة نبل في هذا المجتمع المتعلق بالمرتبية الى حد أن القوانين فيه كانت " تمنع على أفراد الشعب شراء ممتلكات النبلاء"(3) وتفرض على النبلاء مظاهر تميزهم عن العامة " في المراتب والملابس والمساكن والحدائق والنساء والخدم" (4)

لقد كان المجوس وطبقة النبلاء الإقطاعية يمثلون دائما في هذا المجتمع مثالا لوحدة المصلحة الطبقية. ولقد حرص منشئو الدولة الساسانية الجديدة على أن يبقوا على هذا الوضع بل على أن يدعموه أيما دعم ثقة منهم على الأقل في هذه الفترة بقوة دولتهم. غير أن مثل هذا الوضع جعل كل ثقل الدولة وحاشيتها يقع على كاهل القاعدة الاجتماعية المكونة من الفلاحين أساسا والذين عليهم:

- أن يخدموا الأرض ولا يقربوا ثمارها قبل أن تطالها يد الضرائب الطويلة.
- أن يحاربوا تحت إمرة الفرسان الإقطاعيين حتى وان كانوا دائما في حالة أجمع المؤرخون القدماء عل أنها كانت مثالا للتعاسة.
- أن يدفعوا الضرائب التي كان القانون يعفي منها النبلاء والفرسان ورجال الدين والكتبة وكل من هم في خدمة الشاهنشاه.

إن المجتمع الذي ارتضاه مؤسسو الدولة الساسانية هو مجتمع يرى في الطاعة أساس الفضيلة ويرى في قبول المرء بمكانته الاجتماعية الموروثة مقياسا للصلاح. ومثل هذا الوضع لا بد، للإبقاء عليه، من دين يمثل أساسه النظري والفلسفي ويضفي عليه صفة الشرعية الإلهية.وهنا لا يجب أن يخفى دور المزدية التي حرص أردشير على أن يجعل منها دينا رسميا للدولة الساسانية المترامية الأطراف في تمتين مركزية الدولة الناشئة: فالدين المزدي يتمحور حول الاه كوني غير مخصوص بشعب من الشعوب ، خالد لأنه سابق لكل المخلوقات ، خير لأنه لا يمكن أن يصدر عنه الشر. وتبعا لذلك فكل تجليات هذا الاله الخير كالهواء والنار والنور والماء والمعادن يجب أن تحظى بالتقديس.

إن تأثر المزدية بـ "شمش" البابلي يبدو واضحا من خلال تقديس عدد من عناصر الطبيعة التي ذكرنا وكلها عناصر ترتبط بالشمس ولذلك فهي ضرورية لحياة الإنسان على الأرض فتقديسها إنما هو ، في نهاية الأمر، تقديس للخصب والحياة (أي الخير) ودفع للموت المشوش للحياة والذي يرمز إليه بـ"الظلام" لا في المزدية فحسب بل في تراث شعري يمتد الى اليوم في مختلف الحضارات. غير أن عناصر الطبيعة الخيرة لا توجد على الأرض صافية بل في حالة اختلاط وتلوث: وهذا يعني أن المزدية لا تعتمد أي ثنوية في تفسير الأشياء مثل نسبة الخير الى السماء والفساد الى الأرض والصفاء الى الروح والكدر الى

الجسد أي هذه الثنوية التي ستوقع الفلسفة والديانات التي تتبناها في تشاؤم قاتل. فهي ترى عل سبيل المثال في الزهور التي تنبت في الأرض عناصر من السماء كالماء والنور ومن هنا كان الواجب الأسمى عند المؤمنين أن يقاوموا عناصر الفساد والظلمة التي تلوث كل شيء في الطبيعة والإنسان تغليبا لعناصر الخير والنور.ويوم تتغلب عناصر الخير والنور فذاك هو يوم الخلاص. وأما قيمة الإنسان فهي تتحدد بمقدار سعيه الى تغليب أحد طرفي الصراع على الطرف الآخر. نحن لسنا ، إذن ، بإزاء ثنوية تقوم على تضادد كلي ومتعادل بين الخير والشر اذ أن هرمزد فوق كل شيء وإذ أن عناصر الشر والخير والظلام والنور والفناء والخلود مبثوثة في كل شيء فلا مجال للقول ، عند المزديين، إن الأرض مصدر كل شرور وإن العالم الأمثل في السماء اذ في الأرض الظلمة والنور على حد سواء. هذا هو ما يميز المزدية عن الثنوية المانوية والغنوصية عموما. إذن نحن بإزاء دين لا يقود الى التشاؤم حتما ، دين يرفض التزهد لأن في الزهد موقفا رافضا للحياة والحال أن في الحياة جانبا من النور يجب تعزيزه. نحن بإزاء دين عليه أن يبذل جهدا تجريديا أكبر حتى ينزع عنه قدرا أكبر من المادية ليلتحق بالديانات الأخرى.

لا شك أن القضية التي تستعصي على الفهم هي مكانة الروح الشريرة التي تبث الفساد والظلام في الكائنات. إن هذه الروح الشريرة لا ترقى الى مستوى الإله لأن هرمزد وحده هو الله كما أنها ليست منه لأنه اله خير، وإذن فما هو مصدر هذه الروح ؟ هنا لا تجيب المزدية عن هذه المسألة بالوضوح المطلوب بل تكتفي بإقرار مخالطة الظلمة كل شيء (وكأنها تكتفي بملاحظة ما يحدث في الكون) وتكتفي بالدعوة الى مقاومتها نصرة للروح الخيرة التي مصدرها هرمزد.

إن المزدية وهي تؤكد على فكرة وجود الخير والشر معا على الأرض تبرر اقتصاديا وسياسيا الملكية وتبتعد أيما ابتعاد عن المسيحية التي تفصل بين مملكة قيصر ومملكة الله.ولأن المزدية تبرر شرعية الحكم على الأرض بما فيه من مرتبية صارمة ، فقد اضطرت تبعا لذلك الى تعديد القيود الاجتماعية والدينية فأصبحت الطقوس التي يجب على المؤمن المزدي أن يرعاها كثيرة جدا بل مكبلة:فعليه أن يبذل جهدا كبيرا حتى لا يلوث العناصر الخيرة من هواء ونار ونور وماء.وهكذا فهو لا يحرق الموتى لأن في حرقهم تلويثا

للهواء وللنار على حد سواء ، ولا يدفنهم لأن في ذلك تلويثا للأرض وإنما يترك جثثهم العارية نهبا للطيور الجارحة.

إن الأمر يصل عند المؤمنين المزديين الى حد اعتبار الاستحمام بالماء الساخن واحدا من الآثام اذ تحرم هذه الديانة تلامس (تماس) الماء والنار بل إن في الاستحمام بالماء ذاته إثما اذ أن هذا العنصر المقدس يتلوث بلمس الجسد. وفي هذا نظم الشاعر الحلبي أبو العلاء المعري مستغربا من لا عقلانية الأديان:

عجبت لكسرى وأشياعه وغسل الوجوه ببول البقر

إن حياة المزدي تبدو ، إذن ، مقننة لا شيء فيها يترك للصدفة أو الاجتهاد:

" فعلى المؤمن المزدي أن يصلي للشمس أربع مرات في اليوم وعليه أن يصلي للقمر وللنار وللماء. عليه أن يقيم الصلوات عند النوم وعند القيام وعندا يغتسل ويتمنطق (أي يشد نطاقه) وعندما يذهب لقضاء حاجته ، وعندما يعطس وعندما يقص شعره وأظفاره وعندما يشعل قناديل ، الخ.

عليه أن يحرص حتى لا تنطفئ النار في المنزل وحتى لا يسقط ضوء الشمس على النار وحتى لا يلامس الماء النار وحتى لا تصدأ المعادن اذ المعادن مقدسة. أما الإجراءات الضرورية لطهارة من لمس جثة أو امرأة في فترة الحيض أو في حالة ولادة وخاصة إذا أجهضت وليدها فهي على غاية من الإرهاق والإزعاج " (5)

إن الظاهرة الأكثر تعقيدا في هذا الدين الذي يكاد أن يخنق معتنقيه – في نظرنا اليوم على الأقل – بما قنن من مرتبية وما ضبط من طقوس تهيمن على حياة المؤمنين ، هي العلاقات الجنسية بين الأقارب.

لقد كان المجتمع الإيراني مجتمعا يعدد فيه الذكور الزوجات ويقنن مراتب كل واحدة منهن في العائلة. وهذا أمر يكاد أن يكون طبيعيا في المجتمعات القديمة ولكن الدين المزدي يقر بالزواج بين الأب وابنته وبين الأم وابنها وبين الأخ وأخته بل انه يبيح للرجل الزوج أن "يقرض إحدى زوجاته رجلا آخر من دينه إن لحقه عوز اضطراري"(6). وقد لا يوجد تفسير لهذه الظاهرة في غير معاداة المزدية كل أشكال العزوبة التي ليست في نظرها مظهرا من مظاهر الحياة بل هي مرادف للقحط وبذلك تدخل ضمن الصفات التي تمثلها الروح الشريرة ، روح الظلمة: إن المسيحيين المعاصرين للدولة الساسانية والذين لجأ عدد من مفكريهم الى وجء نفسه قتلا للغرائز الجنسية فيه (7)، وكثير منهم الى العزوبة إخلاصا منهم لدين المسيح سوف يستهجنون أيما استهجان سلوك المجوس الجنسي وكذلك سوف يفعل العرب المسلمون بعد أربعة قرون. ولكن القضية تحتاج الى فهم ينطلق من دين

المجوس ذاته ذلك أنهم اشتهروا بالاستماتة في الحفاظ على صفاء الدم الإيراني فما هو تفسير سلوكهم الجنسي إن لم يكن موافقا لهذا التفسير الذي قدمنا ؟

إن المزدية ، على عكس الثنوية المانوية والغنوصية عموما ، ترى أن العالم المادي وأن الأرض بصفة خاصة هما ميدان صراع بين قوى النور والخصب والعطاء من ناحية وقوى الظلمة والجفاف والقحط من ناحية ثانية.وخصب الأرض الذي لا يختلف عن خصب الجسد هو غاية نشاط الفلاح الإيراني الذي عليه أن يقلص عنصر الجفاف الذي يمكن أن يتلفها بل إن قبول الفلاح بدوره باعتباره مجرد وسيلة لإخصاب الأرض (مفهوم الطاعة) هو ضريبته من أجل الخلاص وطريقه الى عالم النور والخلود.

هكذا تتجلى قيمة الدين المزدي في تركيز الفلاح في الأرض ومدها بعدد متزايد من الخدمة ضمن مفهوم للطاعة يبقي على المرتبية الاجتماعية والسياسية. ولسوف يعتبر النبي ماني في الثلث الأخير من هذا القرن ، وهو يدعو الى مانوية ثنوية فيها الكثير من ملامح المسيحية، عنصر تخريب للدولة ولنظام المجتمع فيها فيجمع فقهاء المجوسية على امتحانه فيقتل سنة 276.

كانت عائلة ماني الهمذانية الأرستقراطية الأصل قد استقرت في قرية تقع بين دجلة والفرات كان ينشط فيها إضافة الى أتباع الدين المزدي السني الديانيون المسيحيون والغنوصيون على حد سواء. وقد أحس ماني (215/216-276) وهو يعاشر كل هذه الأديان أنه لا بد من تجديد ديني يأخذ من الزرادشتية ما يأخذ ويأخذ من المسيحية ما يأخذ.لقد أحس أنه النبي المنتظر المدعو الى تحقيق هذه الرسالة.هذا الإحساس تم كما كان يتم في كل الأديان عن طريق الحلم أو الوحي اذ لا بد من رابطة بين الله والسماء المطلقين والنبي والأرض النسبيين وليس في امكان مثل هذه الرابطة أن تتنزل إلا خارج ما هو طبيعي وعادي وبواسطة ملك سماه ماني الرفيق(8):

" وهكذا بدأت دعوته فدعا الناس الى الإيمان به بوصفه الروح القدس (باراكليت) الذي تنبأ المسيح بظهوره وبرر ذلك "بأن أنبياء الله كانوا دائما هم حملة الحكمة يظهرون للناس من زمن الى آخر فكان بوذا للهند وكان زرادشت لفارس وكان المسيح للغرب وها

أني أنا ماني نبي الـه الحقيقـة أحمـل فـي هـذا الزمـن الأخيـر رسـالة الـوحي وأبعـث فـي بلاد بابـــل" (9).

يمكـن القـول إن المانويـة تقـوم علـى الايمـان بـأن " المبـدأين الأصـليين همـا الله والحركـة الفوضـوية"(10) الـتي تحكـم العـالم فـالله هـو المبـدأ الخيـر كمـا أن الشـر هـو هـذه الحركـة الفوضـوية. وبما أن الله خير فهو يتدخل لإعادة النظام الى الحركة الفوضوية. هذا التدخل يقـع بوسيلتين وعلى مرحلتين:فـالله يبعـث أول الأمـر بـروح منـه الـى العـالم.ولكـن هـذا الاختلاط ينسي الروح أصلها ومصيرها فإذا هي أسيرة المادة.على أن حالـة السـقوط هـذه ليسـت حالـة نهائية فالروح في حالة بين الحالتين، حالة الأسـر والنسـيان وحالـة تـوق كـامن الـى الخلاص من هذا الأسر ولذلك فـان الله يبعـث هـذه المـرة بقـوة إنقـاذ صـادرة عنـه (دميـورج) تلامـس الروح الإلهية الغافية في الإنسان فتسـتفيق مـن غفوتهـا وتختـار الانـدماج فـي العـالم العلـوي الأصلي وبذلك يتحقق نصر الخير ممثلا في الله وفي الروح المنقذة وفي الروح التي خلصـت لطبيعتها الأولى بعد حالة الاختلاط بالشر ممثلا في الجسد والأرض.

من الواضح ، إذن، أن المانوية تشبعت بقراءة معينة للمسيحية يظهـر ذلـك حـتى فـي التثليـث الذي وصفنا.وهي إذا كـانت تطلـق عليهـا صـفة الثنويـة والتثنيـة فـذلك لمقابلتهـا بيـن الأرض والجسد والطبيعة من ناحية وعالم علوي صاف خالص وان كان فيه ما فيه من التثليث.

هذا الاقتراب الشديد من المسيحية يبـدو أوضـح مـن خـلال تعـاليم الـدين المـانوي وهـي الـتي ستكون سببا في قتل النبي ماني لأنها تناقض المزدية الزرادشـتية:فالديانـة المانويـة إذا كـانت قـد راعـت مسـتوى النـاس العـام ولـم تضـف الـى القيـود الزرادشـتية قيـودا جديـدة تزيـد مـن تكبيلهم ، فقد فرضت على دعاتها المـدعوين الـى أن يكونـوا قـدوة للآخريـن ألا يمارسـوا أي نشاط مادي يلحق ضررا بالعناصر المقدسة وألا يطلبـوا أي شـيء فـي الحيـاة ينـم عـن تعلـق بالجسد-المادة فحرمت عليهم امتلاك المـال وادخـار مـا يزيـد عـن حاجـة اليـوم الواحـد مـن الطعام والسنة من اللباس وحرمت عليهم الزواج وأكل لحم الحيوان وشرب الخمر وفرضـت عليهم سبعة أيام صوم في الشهر الواحد وأربع صلوات في اليوم"(11)

هكذا اختلطت المزدية بالمسيحية فولدت المانوية الزاهدة.ولسوف ترى الدولـة الساسـانية فـي هذه الديانة (كما سترى في المزدكية الشيوعية بعد قرنين) أكبر خطر على النظام الاجتماعي

والسياسي فتقتل نبيها سنة 276 وتحقق بذلك نصر الدولة ودينها الرسمي الزرادشتي على دين المعارضة السياسية الدينية.

إن السؤال الذي لا بد من طرحه في هذا المستوى من البحث هو الى أي مدى أثر الصراع الديني في البلاد الساسانية في الأتباع العرب ؟

انه إذا كان يمكن القول إن أعيان العرب الموالين للدولة الساسانية قد تأثروا ، شأنهم في ذلك شأن أعيان الأمازيغ في تامزغا في علاقاتهم بالرومان، بكل ما يتصل بالجانب المادي في الحضارة الساسانية فانه يصعب تصور تأثر مماثل في ما عدا ذلك وسواء أتعلق الأمر بالعرب المستقرين في الحيرة المجاورة أم بالعرب البدو اذ كانت كل ظروف الحياة تحول دون امكان تأثير مثل هذه الديانات المدينية في قوم لا يسكنون المدن وتفرض عليهم حياتهم نفسها شظفا في العيش يفوق أحيانا ما يفرضه الزهد على المتزهدين: إن الزهد في الحياة تماما كالترف بمظاهره المختلفة انما هو ظاهرة مدينية بل هو في النهاية موقف من المدينة ولذلك فان إرجاع ظاهرة الزهد والتصوف الى الايرانين جميعهم ومن دون تمييز أو تحديد لا يحتاج دحضه الى مزيد بيان.

أما في المعسكر الغربي الروماني الذي كان يشمل تامزغا فقد جدت أحداث في هذا القرن الثالث لا تقل جسامة عما حدث في المعسكر الشرقي واشتد تفكك العلاقة بين الدولة والمجتمع المتعدد الأجناس واللغات والثقافات بسبب تباعد الطبقات الاقتصادية واستماتة كل منها في التعلق بمصالحها واتجاه مثقفيها عن وعي أو عن غير وعي الى صياغة نظريات ترسخ مواقعها المادية والثقافية. وفي هذا العصر كان مجال التنظير المهيمن هو الدين خاصة أن الأرسطوطاليسية التي هي أكثر أخذا بالطبيعي والمادي والواقعي والجسدي والأرضي في الأشياء قد أضعفت ظروف الواقع الصعبة القائلين بها فغلبت الأفلاطونية بكل تفريعاتها وظهرت هذه النزعة التي نسبها بابيلون في تعصبه على جوليا دومنا الى إرادة ثأر سامية من الديالكتيك الإغريقية النيرة التي طعمتها البراغماتية الرومانية".

والحقيقة هي أن أفضل معبر عن هذه النزعة قد ظهر منذ قرون ونعني به فيلو اليهودي الاسكندراني (20ق.م-40 ب.م):

" كان فيلو يعتبر كتب التوراة الخمسة (12) كتبا موحى بها من الله.ومثل هذا المبدأ كان مجهولا لدى فلاسفة الإغريق. وفي الوقت ذاته كان فيلو يقول بثنائية الإنسان (أنه مادة وروح) التي نادى بها أفلاطون وأن الجسد هو سجن الروح التي تتوق أبدا الى الخلاص منه والرجوع الى الله.والله في نظر فيلو لا يحده عقل ، وهو أسمى من كل معرفة. أما المادة فلها حدود ولها نهاية.ولذا وجب أن يوجد وسيط بين المحدود واللامتناهي.وهذا الوسيط بين الله وبين العالم هو "الكلمة" التي وصفها بأنها مولود لله: إنها الاله الثاني"(13).

إن هذا الشاهد الطويل يلخص الأساس الذي ستتولد منه كل الخصومات الدينية اللاحقة. فهو يذكر لفظ الوحي (كتب أوحاها الله) وينسب الى الزعيم اليهودي موسى (القرن الثالث ق.م) صفة الوعاء البشري المؤهل في أوقات حياته المادية لتقبل مضمون الهي يختلف عن المضامين العقلية المرتبطة بتجربة الإنسان الحياتية فيطرح بذلك مسألة طبيعة هذا المضمون ووسيلة تبليغ هذا المضمون ومنزلتها.

وقضية الوحي هذه شغلت المفكرين ذوي الأمزجة العقلانية منذ القديم اذ لا بد من التمييز بين كلام الأنبياء (وهم بشر) الذي يندرج ضمن الوحي ويكون فيه النبي مجرد وعاء مستسلم ومسلم وكلامهم البشري العادي الذي يكون نتيجة تفكير وثيق الصلة بالأشياء المعهودة التي تدعو كل واحد من الناس الى إعمال عقله فيها حتى يتمكن من التكيف معها. (14) فالوحي يفترض حالة تقبل مطلقة أو حالة إسلام واستسلام يصبح فيها التفكير العادي الذي هو حركة دماغ يتعامل مع مؤثرات محسوسة عائقا من عوائق التقبل. ومن هنا كان ارتباط تجربة الوحي في الديانات السماوية(اذ توجد ضمن البشرية أمم لها ديانات غير ديانات الشرق الأوسط...) بحالات تعطيل في نشاط العقل العادي وحالات فراغ تؤهل الأنبياء لتقبل حقائق تختلف عن الحقائق التي يتوصلون إليها في حالاتهم العادية بل حالات نوم تشل الى حد ما تأثير الأحداث البشرية وتفسح المجال للرؤيا.

إن اعتبار فيلو كتب التوراة الخمسة كتب وحي يعني أن النبي موسى كان في مجمل اللحظات أو الدقائق الذي فرغ فيها ذهنه من كل ما هو مادي وشل تفكيره العادي ووعيه الأشياء ومنها جسده كان في مجمل هذا الوقت نبيا. أما في ما عدا ذلك من أوقات قد تمثل 99 في المائة من حياته فقد كان إنسانا يهوديا شبيها بأي كان من البدو اليهود إلا ما كان من

هذا التمايز الطبيعي بين فرد وفرد ينتميان الى مجتمع واحد. أما ما سماه فيلو الكلمة أي "هذا الوسيط بين الله والعالم" فان عبارة " أول مولود لله" لا يمكن أن تعبر عنه بالتجريد المطلوب لأنها تقربه من صور البنونة المعهودة والحال أنه "الاه ثان".

إن تهويد الأفلاطونية يتمثل في إحلال مضمون ديني مثالي محل المضمون الوثني الأفلاطوني أي تديين المضمون.ولسوف تنشط الحضارة الغربية البورجوازية الحديثة منذ ولادتها في القرن الثالث عشر الميلادي في تذويب هذا المضمون المهود اجتهادا منها في وضع مجمل تاريخ اليهودية والمسيحية في وضع الجملة الاعتراضية في التاريخ البشري العام. تهويد الفلسفة هذا شطر الإنسان نهائيا شطرين . وسيدور الصراع العقائدي حول تضخيم الجانب البشري في المسيح أو تحجيمه. وفي فترات الأزمات الاقتصادية والاجتماعية كثيرا ما يهيمن الداعون الى تحويل حياة الإنسان جميعها الى ما يقترب من هذه اللحظات أو الدقائق التي رأينا كيف كان موسى يفرغ فيها من محتواه البشري ليتحول الى مجرد وعاء يملأه الوحي أي تملأه "السماء".إن كل تضخم ديني ينجر عنه ضرورة إضرار بمملكة الأرض التي تقوم على "غرق الإنسان حتى ذقنه في الوحل" أي على النشاط المادي والتفكير المرتبط بحياة هذه المملكة.

غير أن أعقد قضية إنما تتمثل في كيفية انبثاث وحي الله المطلق في بشر محدود.بأي وسيلة يكون ذلك ؟ بـ"الكلمة"؟ وبأي لغة ؟ ولا لغة لله وكل لغة هي لغة بشرية أي محدودة وخاصة بأمة من الأمم؟ وما هي منزلة من يتقبل الوحي حتى إن كان ذلك في لحظات معدودات ومجرد تهيئه لتقبل الوحي يجعل منه بشرا متميزا عن بقية البشر؟

هكذا نرى أن اختلاط الدين الموسوي بالفلسفة الأفلاطونية ابتعد بهذا الدين من حالة الفطرة (أي البساطة الملائمة لحياة البدو اليهود في القرن الثالث عشر قبل الميلاد) من دون أن يحقق إجماع الديانيين على هذه الفلسفة.

هذه الأزمة العقدية بدأت في الحقيقة منذ القرن الأول الميلادي بعد نهاية العصر الروماني الجمهوري (509-31 ق.م) وانفراد أوكتافيوس (سنة 27 ق.م) بحكم منطقة رومانية تمتد على مساحة 3.000.000 كلم 2 وتضم عددا من السكان يتراوح حسب تقديرات مختلفة بين خمسين وخمسة وستين مليونا وهو رقم ضخم بالنسبة الى سكان الأرض آنذاك اذ لم

يكونوا ليتجاوزوا ربع مليار نسمة ولم يكن بلد كالصين يعد أكثر من اثنين وخمسين مليونا من السكان. منذ هذه الفترة وحتى سقوط روما سنة 476 بفعل ضربات البربري الجرماني أودواكر بدأت روما تسمى بالإمبراطورية بكل ما تعني هذه الكلمة من تركيز السلط جميعها في يدي الإمبراطور. وقد انتظم الخمسون مليونا من السكان حسب هرمية تتوزع كالتالي:

- الإمبراطور وأعضاء مجلس الشيوخ والقضاة المدنيون وكل هؤلاء كانوا حسب المعتقدات الرومانية على صلة بالآلهة يديرون شؤون الدولة بوحي من المشتري.
- طبقة المحاربين حماة المدينة وناشري مجدها بوحي من اله الحرب المريخ.

-وفي القاعدة طبقتا الفلاحين والصناع اللتان توفران شروط الحياة المادية والفنية والتقنية للمدينة بوحي من كيرينيوس . والى هذه الطبقة ينتمي النجار عيسى بن مريم زوجة يوسف مما يفسر إقبال عدد من سكان الإمبراطورية سواء في بلاد المشرق أو تامزغا على اعتناق المسيحية التي كانت تنشط سريا لصبغتها المعارضة ولما كانت تحمل من بذور فكرة عدالة اجتماعية كانت على الدوام تمتلك قوة جذب في الطبقات المقهورة اجتماعيا.

أما القيصر أغسطس فكانت تتجمع في شخصه الوظائف الثلاث: إن مكانة القيصر شبه الإلهية(ومن القياصرة من سيتأله) لا يفسرها إلا عظمة روما التي بلغت في عهد أوكتافيوس ما بلغت وستبقى كذلك طيلة القرنين الأول والثاني الميلاديين لتبدأ بالتناقص بداية من القرن الثالث.

هذه المعتقدات الرومانية لم تكن محل إجماع كل سكان المستعمرات ومنها المستعمرة السورية التي كانت تعد خمسة ملايين نسمة من السوريين واليهود واليونان وينشط فيها الدعاة الدينيون (اذ لا وطنية ولا صراع طبقيا في مثل هذه الأزمنة فقد كان كل صراع يتخذ شكل الصراع الديني) سواء أتعلق الأمر بأديان قديمة كاليهودية التي ترقى الى عهد القائد السياسي النبي موسى الذي قاد اليهود على عهد الفرعون رمسيس الثاني (1298-1235) في هجرتهم من مصر الى بلاد الشام وقالت عنه التوراة انه كلم يهوه من فوق الجبل في سيناء وفتح الطريق لقيام الدولة اليهودية وازدهارها على عهد الملوك الثلاثة المشهورين شاول (1030-1010) وداود (1015-975) وسليمان (970-931) والتي ستبقى ذكراها حية عند القوم حتى بعد أن أصبحت دولتهم في وضع التابع لروما الأوربية الوثنية كما كان

عليه الأمر في القرن الأول الميلادي أم تعلق الأمر بدين ناشئ جديد سيسمى فيما بعد بالمسيحية نسبة الى المسيح (من الآرامية: مشيها) وهو عيسى اليهودي أحد أحفاد الملك النبي داود وابن مريم ويوسف وأخو يعقوب رئيس كنيسة القدس المتوفى سنة 62م. وقد ولد هذا المجدد الديني والمعارض السياسي في الناصرة (الخليل) سنة 7 أو 6 أو 4 ق.م. كما أثبت ذلك العلماء في العصور الحديثة على عهد قيصر أغسطس واشتغل بالنجارة حتى حدود الثلاثين من عمره ثم نشط سياسيا أي دينيا فأثار نشاطه السلطة الدينية اليهودية الرسمية والسلطة السياسية اليهودية المحلية عندما اتضح لهما أن دعوته تهدد أسس المجتمع الموروث اذ تقوم على قراءة جديدة لعلاقة الإنسان بالإله وبالدولة وبالإنسان فرفعت قضيته الى المسؤولين الرومان.

"لقد تأكد أن شروح التوراة الأكثر نفاذا قد عجزت عن الإتيان بإشارة جلية الى خلود الروح في التوراة:إن اليهودي يسأل عما يأتي هنا وعما يأتي الآن من أفعال ، فإذا أخطأ فلن يعاقب أو يشفع له في حياة أخرى يعلم الله وحده ما هي.إن اليهودي ، إذا كان مؤمنا وان دعت الحاجة الى ذلك ، يدرك فحسب أن الرسالة التي يجب أن يضطلع بها في هذه الحياة إنما تعزز طابع هذه الحياة المقدس"(15).

إن علينا هنا أن نسطر هذا الكلام وأن نتقطنه ونعيه لأنه مفتاح كثير من القضايا التي يمكن أن تمثل بحوثا مستقلة على غاية من الأهمية ذلك أنه يعني أن لا وجود في الموسوية لهذه النواة (الـ"أ.د.ن") المولدة لكل أشكال الشعور بالذنب ولكل أشكال الانشطار الذاتي الحرية بشل قدر كبير من طاقات التمدد البشرية إن سكنت الإنسان. وها أن عيسى " يبشر بقرب حلول يوم الحساب وبضرورة التوبة في انتظار الحساب وعدم حرمان أي تائب من الخلاص من هذه الساعة المشهودة" (16).

إن الدعوة الى مملكة السماء تعني ، إن سكنت النفوس، دعوة الى هجرة الأرض وتحولا من المواطنة الى الأخوة الدينية وتفضي الى انشطار في الولاء، ولاء للدولة (الأرض) وولاء لله (السماء): هذا عندما يتمكن الإنسان من تحقيق تعادلية صعبة كثيرا ما تكون مزعومة. أما إذا تضخم الولاء لله عند بعض المؤمنين فان الحياة الحقة تصبح عندهم حياة الزهد في ما لقيصر

والتعلق بما لله وذاك هو مضمون دعوة عيسى وذاك هو مضمون قول الشاعر العربي أبي العتاهية:

لدوا للمـوت وابنوا للـخـراب

لذلك قاوم عيسى من اليهود من رأوا في دعوته خروجا عن دين موسى القديم الذي لا يتضمن هذا القدر من الزهد وقاومه الرومان لأن جزءا من ولاء المواطنين لقيصر سيتحول الى الله أي أن جزءا من ولاء المواطنين سيتحول من روما عاصمة الإمبراطورية الى السماء.

لقد قاد تصور السلطة ورجال الدين التقليديين الموسويين تركيبة المجتمع الفضلى الى ما رأينا من هرمية يتنزل فيها الصناع والفلاحون منزلة القاعدة حتى لا نتحدث عمن دونهم مكانة اجتماعية وها أن عيسى " لا يتحرج(...) من معاشرة الأصناف الهامشية والمنبوذة في المجتمع اليهودي من عشارين وبغايا وأناس بسطاء محتقرين لجهلهم بالشريعة"(17).

وهذا الجانب الأخير في المسيحية هو الذي لم تتمكن الحضارة البورجوازية الرأسمالية من هدمه في المسيحية لأنه أفضى الى تبلور علاقة بين الإنسان والإله قوامها الأب – الابن بديلا عن العلاقة الله –العبد /السيد-العبد.

ومن يقرأ لعدد من الكتاب المسيحيين والمسلمين من العرب المعاصرين كجبران في كل ما كتب وكنجيب محفوظ في "اللص والكلاب" وكالطاهر وطار من الكتاب المغاربة في روايته " رمانة" يحس بهذا الاستثمار اللاشعوري المكثف لسلوك المسيح الذي يتجاوز الانتماء الديني ويتجاوز أشكال الكتابة التقليدية بدليل أن رواية كـ " المعذبون في الأرض" لطه حسين تخلو رغم العنوان والنماذج البشرية موضوع الرواية خلوا كاملا مما ذكرنا.

أما في الغرب المسيحي فقد تمثل هذا الجانب في مناصرة عدد من رجال الدين الثورات التحريرية وفي اشتغال كثير من اللائكيين في أعمال البر عبر العالم. فلا بد عندئذ من استحضار هذا الجانب عند المقارنة بين الموسوية والمسيحية والمحمدية : فشمس الله المسيحية تبدو هنا، لما تعرضت له هذه الديانة من اضطهاد في البداية، دافئة لا محرقة.

لقد تجمعت ، إذن ، في الدعوة الجديدة كل العناصر التي تجعل منها دعوة خطيرة دينيا وسياسيا واجتماعيا واقتصاديا على الدولة الرومانية ومحمييها من أعيان اليهود.ومن هنا كان الصراع بين عيسى والسلطة اليهودية المحلية:

" إن حادثا بارزا في دعوته يظهره لنا ملتجئا الى نوع من العنف المادي لإصلاح المؤسسة اليهودية المركزية ، ذاك هو طرد تجار الهيكل. وهو حادث تبدو صفته التاريخية مؤكدة في جملته: إن عيسى بطرده العنيف الصيارفة الذين يوفرون للحجيج النقود الخالية من الصور البشرية حتى يتمكنوا من أداء الضريبة للهيكل ، وكذلك التجار الذين يعرضون على المؤمنين الحيوانات الصالحة للقربان إنما كان يهاجم أقوى وسط في الشعب اليهودي، وسط المتصرفين في الهيكل وفي ثرواته وطقوسه ، وبالتالي يهاجم الحبر الأكبر ذاته"(18)

ولقد ردت السلطة السياسية اليهودية المحلية الفعل فاعتقلت هذا المعارض الديني- السياسي وسلمته الى سلطة الحماية الحريصة على الحفاظ على الأمن في مستعمرتها:

"وكل الدلائل تشير الى أنه قتل صلبا في ربيع سنة 30 م بطريقة كانت مرادفة لأكبر لعنة في تلك البيئة" (19)

لقد ظنت السلطة السياسية وهي تسلك بإزاء عيسى هذا المسلك العنيف أنها قد اجتثت هذه الدعوة الدينية الجديدة من جذورها ولم تتفطن في الإبان أن عددا من الأموات هو في بعض الأحيان أكبر خطرا بما لا يقاس من الأحياء. وفعلا فلقد أصاب أتباع عيسى المؤمنين بأنه المسيح المنتظر لا مجرد نبي من البشر ما أصابهم من صدمة دامت بعض الوقت ولكنها لم تعمر طويلا اذ تضخم السؤال الكبير المعضلة: كيف يمكن أن تمتحن كائنات بشرية زائلة إلها خالدا ؟ أي بصياغة أخرى : كيف يمكن أن يظهر النسبي على المطلق ؟

دام السؤال حينا من الزمان وأفاق الحواريون الصحابة من صدمتهم اثر رؤيا تعلن عن تهافت الاختيار الروماني.يقول يوحنا (20) في رؤياه (1/1/18) متحدثا عن ظهور المسيح بعد دفنه:

" فلما رأيته سقطت عند قدميه كالميت، فوضع يده اليمنى علي قائلا: لا تخف، أنا الأول والآخر والحي، وقد كنت ميتا وها أني حي الى دهر الدهور ، ولي مفاتيح الموت والجحيم" (21).

ولنستحضر من جديد ما ذهب إليه فيلو عندما قال بثنائية الإنسان وأنه مادة وروح أي شكل ومضمون فعيسى الذي صلب ودفن على مرأى ومسمع من الجميع أي عيسى التاريخي لم يكن غير الجسد والشكل والصورة أي هذه المادة الزائلة الخاضعة لقوانين الطبيعة من حياة وموت ولكن المسيح الذي ظهر ليوحنا في الحلم (أي في هذه الفترة التي بدت له أنها فراغ ذهني مطلق لا شائبة نشوبه من حضور أرضي إنما هو ذلك المضمون الروحي الخالص الذي أسكنه الله جسد عيسى حتى يكون واسطة بين الله والبشر.ويوم انتهت رسالة عيسى في الأرض عاد للاتصال بمصدره أي بالله في حين لم تحتفظ الأرض منه إلا بما شبه لمن صلبوه أنه المسيح وليس هو في الحقيقة غير وعاء المسيح (أي جسده).

ولسوف ينتشر أتباع المسيح في العالم المعروف آنذاك منذ هذه الفترة المبكرة لنشر الدين الجديد الذي سيزداد ابتعادا عن اليهودية الموسوية حتى يستقل بنفسه دينا إنسانيا لا دينا وطنيا مخصوصا بشعب كالدين اليهودي رغم ما سيلحقهم طيلة ثلاثة قرون من تعسف السلطة الرومانية الرسمية واستعصاء هذا الدين على العقول الميالة الى فهم للأشياء قريب من الارسطوطاليسية البذرة الأولى للتفكير الأقرب الى المادية والواقعية ، ورغم اختلاف المسيحيين أنفسهم في فهم طبيعة المسيح ذلك أنه ليس من السهل على كل الناس أن يفهموا كيف يكون من الممكن أن يتحول إنسان مثلهم خاضع لطبيعة البشر بما تتضمنه من ولادة ونمو فموت الى كائن خارج عن قوانين الطبيعة يظهر في النوم بعد صلبه بأيام لبعض حواريه ليعلن لهم أنه حي خالد لا يموت. ورغم هذه النشأة "القيصرية" لعدد من الأديان فان الغريب فيها أنها ، يوم تتمكن بفعل الزمن من نفوس كثير من الناس ، تكتسب لارتباطها بمعضلة مصير الإنسان (أي بالموت في نهاية الأمر)، ما ليس في إمكان أي تجربة بشرية أن تكتسب.

لقد عمدنا الى التخصيص عندما استعملنا عبارة "كثير من الناس" ذلك أن من الناس ، والقضية لا تتعلق بالإيمان أو الإلحاد ، من يجتهد حتى يؤمن ولكنه لا يتمكن من ذلك فهو عاجز عن إيمان كم هو سهل عند غيره من الناس . وأفضل مثال على ما نقول هو مثال المعري الذي تحدث في حيرة عن الأديان جميعها :

عجبت لكسرى وأشياعه وغسل الوجوه ببول البقر

وقول النصارى الـه يضـام ويظلـم حـيا ولا ينتصـر
وقول اليــهود الـه يحـب رسيس العــظام وريح القتـر
وقوم أتـوا من أقاصي البلاد لرمــي الحجار ولثم الحجــر
فـواعجبا من مـقالاتــهم أيعمى عـن الحـق كل البشر ؟

وقد تحدث وليم جيمس (1842-1910) في كتـابه "البراغماتيـة" عـن "المـزاج العقلانـي" و "المزاج التجريبي" فكتب :

"إن تاريخ الفلسفة (و الدين و الأدب و الفن والسياسة...) إنما هو فـي جـزء كـبير منـه تاريخ نوع من النزاع بين الأمزجة البشرية" ففي الفلسفة (وفي الأنشطة الإنسـانية الأخـرى) نرى تباينا تعبر عنه الصفتان "عقلاني" و "تجريبي". والصفة الأولـى تلازم مـن يكـون مـن الناس مسكونا بهـذا الاطمئنـان الـى المبـادئ الخالـدة والمطلقـة فـي حيـن تلازم الثانيـة مـن لا يطمئن إلا الى الأحداث على تنوعها وتشتتها. إن المزاج الاعتقادي يتبدى في كـل مـا يصـدر عن العقلاني من تأكيدات. أما التجريبي فهو يبدو أكثر ميلا الى الشك والى إخضاع كل شيء للنقد الحـر" (22)

هذا الشاهد أعده شاهدا خطيرا لأنه كاد أن يعنـي أن ذوا المزاجين العقلانـي والتجريـبي إنمـا يختلفان "جينيا" بكل ما يمكن أن تتضمن هذه الكلمة من معان.

على أن هذا التعقيد في المسيحية لا يمكن أن يفسر من ناحية تاريخية بغير ظهورها في فـترة وفي بيئة ابتعدتا كثيرا عن البساطة والفطرة.

كتب غوستاف لوبـون (1841-1931) فـي ثمانينـات القـرن التاسـع عشـر، عصـر ازدهـار الوضعية الفرنسية خاصة ، مقارنا بين المسيحية التي ظهرت في بيئة فلسفية صبغتها بتعقيد بالغ وبين الإسلام "دين الفطرة" في لهجة يعجب من قرأ كتاب لوبون الذي ننقل منـه الشـاهد (وكتبه الأخرى) كيف "استعصت" على حس من ترجمه من العـرب المسـلمين الـى العربيـة أكثر من مرة (23):

" يمكن للإسلام أن يفخر بأنـه كان أول دين أدخل التوحيد الصرف في العـالم. إن بسـاطة الإسلام الفائقة منبعها هذا التوحيد. وعلينا أن نبحث عن سر قوتــه فـي هـذه البساطـــة: انـه

قريب المأخذ.وهو لا يعرض على معتنقيه أي سر ولا أي تناقض من هذه الأسرار والتناقضات الكثيرة الشيوع في عقائد أخرى والتي غالبا ما تصدم العقل السليم: هو يقول باله مطلق الوحدانية على الناس عبادته وأن كل الناس أمامه سواء وبمبادئ قليلة تجب مراعاتها فالنعيم ثوابا لمن يتقيد بها والجحيم عقابا لمن يتخطاها.انه لا شيْ في إمكانه أن يكون أكثر وضوحا ولا شيء في إمكانه أن يكون أرفع للبس. إن أي محمدي مهما كانت مكانته الاجتماعية يعرف ما يجب أن يكون عليه معتقده ويمكنه في كلمات قليلة أن يعرض في غير ما صعوبة أركان عقيدته. أما المسيحي فعليه إذا أراد المجازفة بالحديث عن الثالوث وعن استحالة القربان (أي تحول خبز القربان وخمره الى جسد المسيح ودمه) وعن أي سر مشابه من الأسرار أن يكون زيادة على صفته باعتباره مسيحيا عالما باللاهوت ، طويل الباع في كل دقائق الجدل"(24).

وفعلا فان المسيحيين سينشغلون طيلة القرن الثالث (والقرون التي تليه) بصراعات دينية أظهرتهم شتاتا إزاء الدولة الرومانية المعجبة بطريقة الدولة الساسانية في قمع النبي ماني وأنصاره وتركيز الهرمزية الزرادشتية دينا رسميا للدولة.

إن تعقيد الدين الجديد وتشتت معتنقيه يرجعان كذلك الى ما تتصف به أجزاء الإمبراطورية الرومانية من خصوصيات واختلاف في مستوى التطور ومن ثم أشكال التقبل الديني. ولقد كانت مراكز الإشعاع المسيحي في هذه الفترة ثلاثة هي قرطاج في تامازغا والإسكندرية في مصر وأنطاكية في الشام (ضمن تركيا اليوم)حتى لا نتحدث عن روما التي كانت (وستبقى) تطمح الى الانفراد بشرعية التوجيه الديني تبعا لمكانتها السياسية في الإمبراطورية.

هذه المراكز الثلاثة من الصعب أن يكون في إمكانها ، لأسباب اجتماعية وثقافية وسياسية أن تتقبل المسيحية (أو أي دين آخر) التقبل نفسه وسيكون تاريخها الديني والسياسي محكوما بهذه الخصوصيات: ولذلك فبقدر ما بدت تامازغا المدينية حصرا قريبة من الامتثالية الدينية السنية لأسباب من بينها قرب قرطاج من الجزمة الايطالية بدت الإسكندرية التي تغلغل فيها التفكير اليوناني منذ أن فتحها اسكندر سنة 332 ق م. فركب تراثا فرعونيا يحتفل بالموت احتفالا بالغا ، موطنا لفكر تغلب عليه النزعة الأفلوطينية التي تميل الى التوفيق بين

الأفلاطونية والمسيحية فتقلص تبعا لذلك من طبيعة المسيح الإنسان (الأرض ، المادة ، الطبيعة ، السياسة ، وما نشوء الرهبنة في هذه البلاد وانتشار ظاهرة "ختن " البنات في فترة ما من فترات التاريخ إلا دليل إضافي على ذلك). وحتى تصل الى هذه الغاية كانت كثيرا ما تعمد الى قراءة باطنية للنصوص الدينية بحثا عن معنى أعمق من المعنى الذي تتيحه حروفها الظاهرة"(25). أما أنطاكية ، مركز الإشعاع في سورية، فكانت أكثر ميلا الى الأرسطوطاليسية لذلك مالت الى فهم طبيعة المسيح فهما فيه الكثير من البشرية والأرضية والمادية والطبيعية وذلك على الأقل في فترة من فترات النشأة الأولى (26) وحتى تصل الى هذه الغاية كانت كثيرا ما تفضل عند قراءة النصوص الدينية انتهاج طريقة نقدية ديناليكتيكية قوامها اعتماد المعنى القريب والظاهر في النصوص (27) وهكذا فانه في إمكان النزعة الإسكندرية الأفلوطينية أن تبلغ في تأكيدها على وحدة شخص المسيح حد إنكار طبيعتين فيه مختلفتين: واحدة إنسانية وأخرى إلهية. كما أن في إمكان النزعة الأنطاكية الأرسطوطاليسية أن تبلغ في تأكيدها على اختلاف طبيعتي المسيح الإنسانية والإلهية حد رفض القول إن مريم هي أم الله.

انه لم يحدث لي ، وهذا انطباع خاص قد لا يكون مرحبا به في دراسة مثل هذه الدراسة ، أن استمعت الى الشيخ المرتل المصري عبد الباسط عبد الصمد من دون أن أحس بأنني إزاء جنائزية تسربت من فكرة الموت عند الفراعنة الى الأقباط المونوفيزيين الى هذا المرتل المسلم وبذلك تجاوزت خصوصيات الأديان والعصور.

ولسوف تشتد الخصومة بين المدرستين في القرنين الرابع وخاصة الخامس فيندرج أنصار الرؤية الأولى في من يسمون بالمونوفيزيين(نسبة الى من يقول بالطبيعة الواحدة للمسيح) في كل من مصر والشام ويندرج أنصار الرؤية الثانية في من يسمون بالنساطرة في بلاد الرافدين وفارس... أما روما أولا وبيزنطة بعد انتقال مركز السلطة السياسية نهائيا إليها فستنسب الى أنصار الأولى صفة الكاثوليك والى أنصار الثانية صفة الملكيين أو الأرثوذكس .

وقد نستغني عن القول انه ليس في إمكان بلاد تامزغا العميقة أن تأخذ بواحدة من هاتين القراءتين المتضاربتين للمسيحية على الرغم من أن "ذهنية" الأمازيغ ، تماما مثل العرب في

هذه المسألة، كانت أقرب الى تغليب الجانب البشري على الروحي والارضى علـى الأخـروي والاحتفاء بالحياة على الجنائزية.

هذا في ما يتعلق بتأثير التراث الفكري القديم فـي طريقـة تقبـل المنـاطق الرومانيـة المختلفـة أوضاعا اقتصادية واجتماعية وتراثا ثقافيا ضاربا في القدم المسيحية. وهـذه ظـاهرة سـتعرفها كل الديانات: ففي الإسلام على سبيل المثـال ، إذا كـان كـل المسـلمين يقولـون نظريـا بشـروط الإسلام فهم على مستوى ما يضمنون هذه المفاهيم من مضامين يظهر السلوك وحده اختلافهـا لأنه "أصدق إنباء من الخطب"، يبـدون أبعـد مـا يكونـون عـن الوحـدة فـبين اليمنـي والنجـدي والمكي والمصري والأمازيغي حتى لا نتحدث عن الأفغاني والإندونيسي... من فروق الحـس الـديني مـا لا يرفـض القـول بهـا إلا مـن يزعـم أن إسـلام روجـي غـارودي وإسـلام يوسـف القرضاوي أو هذا الأستاذ الذي فسر لتلاميذه ، ولقد كنت شهيدا على ذلك، احمرار لـون مطـر ملوث بحرب سماوية بين المؤمنين والكفار، هما إسـلام واحـد. اذ الإسـلام مثـل كـل الـديانات يتلون بمستوى معتنقيه ويقتضي قبل كل شيء تحقيق المصـالحة بين المرء ونفسه .

أما ما ذكرنا من تعقيد الدين المسيحي فيمكن أن نضرب عليـه مثلين: مثـل النـبي محمـد الـذي كان على مستوى محمد الإنسان ، وهذا مثال رائع على بشريته الصافية لأنها طبيعيـة، يحتفـل ضمن تعادلية صعبة بالصـلاة والعطـر والنسـاء ومثـال أوريجينـوس الـذي ذكرنـا فـي الفصـل الأول من هذه الدراسة، اطلاع الإمبراطورة السورية جوليـا دومنـا بصـورة شخصـية أو عـن طريق المطالعة على فلسفته المتصلة بطبيعة المسيح: لقد بلغ زهد أوريجينوس فـي الـدنيا حـدا دفعه الى أن يجيء نفسه ابتغاء قتل الطبيعة الأرضية فيه وسعيا منه الى تحرير نفسـه مـن قيـد الجسد. فسلوك أوريجينوس كان نابعا من تصوره الخاص للمسيحية ولقضية طبيعة المسيح.

هذا ، إذن ، مثال حي على التعقيد البالغ في هذا الدين الذي ما كان ليتكثف فيه التجريـد العقلـي لو ظهر في بيئة غير البيئة السورية المشبعة تراثا فلسفيا وهذا ما كان مـن وضـع المسـيحيين في القرن الثالث : خصومات دينية بيـن أنصـار الـدين الوليـد وخصـومات بينهـم وبيـن اليهـود وخصومات بينهم وبين أتباع الوثنية الرسمية. ولقد كانت الإمبراطورية الرومانية ترقب بقلـق تفتت الوحدة العقدية في الإمبراطورية في وقت عمدت فيه الدولة الشرقية الخصم الـى إعـدام ماني حفاظا على دين الدولة الرسمي أي حفاظـا علـى مركزيتهـا.لـذلك لا يسـتغرب المـرء أن

يتخذ الإمبراطور دقيوس (248-251) سنة 250 إجراءات قمع ضد معارضي الدولة المسيحيين اضطرت الكثيرين الى الفرار من تعسف السلطة ومنهم أهل الكهف الذين تحدث عنهم القرآن (الكهف 8/18-25):

"أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ، اذ آوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا. نحن نقص عليك نبأهم بالحق:إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذن شططا.هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا.وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا.وترى الشمس إذا طلعت تزور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا.وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا.وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذا الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا. إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذن أبدا. وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها اذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم. قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشدا. ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا. قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض أبصر به واسمع ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدا"

أو أن يتخذ بعد فترة تسامح نسبي إمبراطور آخر هو ديوقلتيانس(284-305) تدابير ضد المسيحيين أقسى مما اتخذ دقيوس :

"أثار هذا الإمبراطور أعنف اضطهاد وأقساه في تاريخ الكنيسة فأصدر تباعا أربعة أوامر يقضي أولها بهدم الكنائس ومصادرة الكتب والآنية المقدسة ومنع المسيحيين من شغل وظائف في الدولة ويقضي الثاني بسجن الاكليروس بينما يوضح الثالث مصير المساجين ويتوج الرابع هذه التدابير بالحكم بالموت أو التعذيب أو النفي الى المناجم على الذين يمتنعون عن تقديم القرابين للإله "(28)

لقد بقي هذا الامتحان في التراث الفكري والأدبي المسيحي مثالا مزدوجا على جبروت الرومان الوثنيين واستماتة المسيحيين في الدفاع عن دينهم.نظم الشاعر الرومي الكاثوليكي الغساني اللبناني خليل مطران (1871-1949) في احتفال أقامه الأقباط المونوفيزيون تخليدا لذكرى شهدائهم القدامى:

صبروا على جبروت عات قاهر ساء النهى والدين كل مساء
ما كان "دقلتيـإن" إلا طاغيـا ملك الرقاب بغلظـة وجفاء
لانت له الصم الصلاد ولم تلـن شيئا قلوب الصفوة الفضلاء (29)

ولكن أية دولة في إمكانها أن تعارض الى ما لا نهاية له تيارا دينيا تغلغل في المجتمع حتى العظم وشد إليه حتى عددا من كبار الساسة وكان يستجيب أكثر من الوثنية لروح العصر المتجهة في حتمية نحو التوحيد؟

انه لن تحين سنة 313 حتى تعلن الدولة الرومانية عن قرارها بضمان حرية المعتقد.وهذا القرار لن يكون في حقيقة الأمر غير الخطوة الأولى نحو تبني الإمبراطورية الرومانية ذاتها دين من اضطهدتهم طيلة قرون.

هكذا اذن انتصرت الدولة الساسانية على المانوية وانتصرت المسيحية على الدولة الرومانية فكيف كان وضع العرب في مشارف هذه الأراضي الزاخرة بالصراع العقدي في القرن الثالث ؟

يقع العرب في منطقة إن لم تتعرض قبل تنصر الدولة الرومانية في القرن الرابع الى تأثير التيارات الدينية المتصارعة بشكل حاد فإنها لم تكن في بعض المناطق المتاخمة للإمبراطوريتين في منعة من تأثير هذه التيارات منذ القرن الثالث الميلادي فإمارة الحيرة التي زامن قيامها قيام الدولة الساسانية إذا كان أمراؤها على العموم وثنيين إما عن عقيدة صادقة أو تجنبا لما يمكن أن يثيره اعتناق المسيحية من تحفظ حماتهم الساسانيين المزديين ، فان بعض أفراد حاشية الأمراء اللخميين كانوا نصرانيين منذ فترة مبكرة اشتهروا في كتب التاريخ باسم العباد. نقول أمراءها على العموم لأنه وجد من بين هؤلاء من حمى المانويين المضطهدين في إيران كعمر بن عدي (260-273) ومن تنصر كابنه امرؤ القيس بن عدي(274-328) الذي تسبب تشيعه للرومان في فساد العلاقة بين الساسانيين واللخميين. كتب ابن خلدون عن العباد:

"ثم رجع أردشير (225-241) الى أمر العرب وكانت بيوتهم على ريف العراق ينزلون الحيرة ، وكانوا ثلاث فرق:الأولى تنوخ(...)وكانوا يسكنون بيوت الشعر والوبر ويضعونها غربي الفرات بين الأنبار والحيرة وما فوقها فأنفوا من الإقامة في مملكة أردشير وخرجوا الى البرية. والثانية العباد الذين كانوا يسكنون الحيرة أو وطنوها، والثالثة الأحلاف الذين نزلوا بهم من غير نسبهم، لم يكونوا من تنوخ الناكثين عن طاعة الفرس ولا من العباد الذين دانوا بهم فملك هؤلاء الأحلاف الحيرة والأنبار وكان منهم عمرو بن عدي وقومه فعمروا الحيرة والأنبار"(30).

وأما عمر بن عدي هذا فقد كتب عنه ابن خلدون:

"ولما ملك عمرو بن عدي ولي بعده على العرب وسائر من ببادية العراق والحجاز امرؤ القيس بن عمرو بن عدي ويقال له البدء وهو أول من تنصر من ملوك آل نصر وعمال الفرس"(31)

وكتب في موضع آخر عن خليفته امريء القيس:

"وملك سابور لثلاثين سنة من ملكه وولي بعده ابنه هرمز فملك سنة واحدة وولي بعده ابنه بهرام بن هرمز (273-276 ، هذا الذي قتل ماني سنة 276) كان عامله على مذحج من ربيعة ومضر وسائر بادية العراق والجزيرة والحجاز امرؤ القيس بن عمرو بن عدي وهو أول من تنصر من ملوك الحيرة وطال أمد ملكه"(32)(الى سنة 328).

والاتفاق حاصل على أن العباد كانوا نصارى منذ فترة مبكرة فلقد تسربت المسيحية الى الإمبراطورية الساسانية ومن ضمنها بلاد الرافدين بشكل تؤكده فلسفة ماني المشبعة غنوصية ومسيحية في الآن نفسه.

وإذا كانت المسيحية قد بلغت في انتشارها بلاد الرافدين الساسانية فليس من الغريب أن تكون أكثر انتشارا في المناطق الواقعة في منطقة النفوذ الروماني ومنها الشام الذي هيمنت على جزء منه مملكة تدمر في فترة أولى ثم تاقت ملكة هذه المملكة زينوبيا في ستينات القرن الثالث الى الاستقلال به جميعه عن الإمبراطورية الرومانية وليس في إمكان من يؤرخ لهذه الفترة أن لا يتعرض لبولس السميساطي وزير الملكة زينوبيا (267-272) في تدمر: هذه الملكة لم تكن مسيحية ولكنها كانت تأخذ بمذهب تأليفي وكان ابنها وشريكها في الحكم يسمى

وهب اللات (أي هبة اللات ، واللات والعزى ومناة طيور بحرية) على عادة الوثنيين ولكنها حمت طيلة فترة حكمها مستشارها السياسي وخازن المملكة بولس السميساطي حتى عندما أدانه مجمع أنطاكية وأقاله من منصبه الديني لـ"هرطقته" وقوله إن المسيح استحال إلها(أي لم يكن كذلك في الأصل) بما تحقق عنده من تلاؤم بين إرادته واتحاد حبه للآب.

وتشير كثير من المصادر والمراجع المتعلقة بهذه الفترة الى الجهد الذي بذله أوريجينوس(186-254) في سبيل العودة ببعض "الهراطقة" العرب في بصرى وشرق الأردن والعربية الصخرية الى النهج الديني الصحيح في نظره.وقد اضطر أكثر من مرة الى الانتقال من الإسكندرية الى بلاد العرب تحقيقا لهذا الغرض.إن هذا لا يعني أن المسيحية قد انتشرت بشكل كبير في الجزيرة ولا أنها حملت حتى في الجيوب التي انتشرت فيها قدرا كبيرا من العمق الفكري ولا أنها لم تكن تجاور عبادة الأوثان اذ لا يمكن للناس حتى عندما يتبنون مفاهيم جديدة أن لا يحتفظوا بقدر كبير أو صغير من مضامين تراثهم السابق. ومع ذلك يمكن للمرء أن يبدي في ما يتعلق بهذه المسألة عددا من الملاحظات:

أولا ميل العرب ممن نبذوا الوثنية في بلاد الرافدين خاصة الى المسيحية وانصرافهم عن المزدية رغم ارتباطهم السياسي بالساسانيين وأسباب ذلك كثيرة ولكن يمكن القول انه برز حتى عند عدد من الإيرانيين ميل الى المسيحية وإعراض عن المزدية منذ عهد ماني فكأن هذه الدعوة الدينية كانت تشي بعدم ملاءمة المزدية روح القرن الثالث: وسيبذل الإيرانيون بعد سقوط الدولة الساسانية بقرون جهدا كبيرا لاستعادة شخصيتهم السياسية واللغوية ولكنهم لن يبدوا رغبة مماثلة في ما يتصل بالمزدية...

ثانيا: بغض النظر عن تعايش المسيحية والوثنية عند عدد من القبائل العربية فالملاحظ هو أن المسيحية سوف تتسرب في هذه الفترة المبكرة الى العرب الجنوبيين أكثر من سواهم لقرب مواطنهم من حلبة الصراع العقدي . وعلى العكس من ذلك فان جزءا كبيرا من القبائل العدنانية ستبقى الى فترة متأخرة على وثنية شاذة إذا ما قيست الى تطور أمم أخرى.

ثالثا:إن المرء لن يعدم حتى القرن السابع وجود قبائل عربية ما زالت تعبد الأوثان من ود (كلب في دومة الجندل) الى سواع (هذيل في ينبع) الى يغوث (أنعم من طيء وأهل جرش) الى سعد (ملكان في جدة) الى مناة (الأوس والخزرج)...ولكن ذلك لا يعني أن العرب لم

يعرفوا منذ هذه الفترة بداية تفتت في النظام العقائدي الذي كان قائما في منطقتهم. وسيدفع تنصر الدولة الرومانية في العقود الأولى من القرن الرابع أعدادا متزايدة من العرب الى النصرانية وان في أشكلها الوطنية الهرطقية (والنسطورية في الحيرة والمونوفيزية في بصرى).

رابعا: يمكننا مع بعض التحفظ إزاء الفترة التي قال هافينيث إن المسيحية انتشرت فيها في بعض القبائل العربية أن نأخذ برأيه في ما ذهب إليه من تحديد للقبائل العربية التي انتشرت النصرانية في صفوفها:

"يمكن أن نذكر من هذه القبائل تغلب ونمير وبهراء وتنوخ واللخميين وان كان أمراء هؤلاء قد بقوا وثنيين لفترة طويلة والغسانيين بطبيعة الحال. أم إياد فما زالت في أغلبها وثنية. وفي شمال الجزيرة العربية كان الكلبيون وجذامة في أغلبيتهم نصارى ولم يكن ذلك شأن طيء التي لم تتنصر إلا في جزء منها. وقد تعرضت يمامة وحنيفة في وسط الجزيرة للتأثير المسيحي كما تعرض لذلك وان بقدر أقل كل من تميم وعبد القيس. وكان للنازلين في البحرين وعمان كنائس مزدهرة شأنهم في ذلك شأن قبائل الحرث وكندة في الجنوب العربي وكذلك سكان جزيرة سوكوترة"(33).

---

1) Magiens
2) كريستنسن ، إيران زمن الساسانيين ، ص 91
3) المرجع السابق، ص 313
4) المرجع السابق، الصفحة نفسها.
5) المرجع السابق، ص 116.
6) المرجع السابق، ص 324.
7) مثال على ذلك أوريجينوس (186-254).
8) كريستنسن ، إيران الساسانية ، ص 177.
9) المرجع السابق، ص 179.
10) المرجع السابق، ص 184.
11) المرجع السابق، ص 189.

12) كتــب التــوراة الخمســة Pentateuque : La Genèse, L'Exode, Lévitique, Les Nombres, Deutéronomeأي على التوالي

أسفار: التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية.

13فيليب حتي ، خمسة آلاف سنة ، ص 199.

14 Montgomery Watt, Mahomet à la Mecque, Paris, 1958, p.80

15 Josy Eisenberg, Une Histoire des Juifs, 1970, p 578

16) عبد المجيد الشرفي ، الفكر الإسلامي في الرد على النصارى ، 1986 ، ص 33

17) المرجع السابق، ص 35.

18)المرجع السابق، ص 35.

19)المرجع السابق، ص 38.

20) يوحنا : أحد الحواريين الاثني عشر وصاحب أحد الأناجيل الأربعة القانونية (مات حوالي 100)

21) عبد المجيد الشرفي، الفكر الإسلامي، ص 38 (حاشية 45).

22)William James , Le Pragmatisme , Paris, 1988, pp 25, 27-28

23) الحقيقة أن من ترجمه الى العربية نهايـة القـرن التاسـع عشـر خاصـة حـذف منـه مـا لـو نشـر ، عملا بالأمانة "العلمية"، لعلق بسببه على المشانق المعنوية.

24)Gustave Lebon, La Civilisation des Arabes, 1959, p.79

25)Pierre Rondot, Les Chrétiens d'Orient, p.40

26) في فترة لاحقة ستهيمن المونوفيزية في بلاد الشام.

27) بيير روندو ، مسيحيو الشرق ، ص 40.

28) عبد المجيد الشرفي، الفكر الإسلامي، ص 83.

29)خليل مطران، الديوان، ج 1 ن، ص 80.

30) ابن خلدون ، العبر ، ج 3 ، صص 341-342.

31)ابن خلدون، المرجع السابق، ص 548.

32) ابن خلدون، المرجع السابق، ص 345.

33)Alfred Havenith , Les Arabes chrétiens nomades au temps de Muhammed, 1988p. 55